

السنة النبوية والتجربة الإنسانية: الانفصال والاتصال

د. محمد عبد الحليم بيوشي
جامعة الجزائر1

الملخص:

تناقش الورقة إشكالية الاتصال والانفصال مع التجارب الإنسانية والحضارات المجاورة والموروث الجاهلي، وحضور ذلك في السنة والسيرة المحمدية نقداً أو تقييماً. إذ المستقرى لعديد الأحاديث والوقائع يشهد ذلك التفاعل مع الآخر والاستفادة من خبرته وحكمته، فالإسلام لم يقطع العلائق كلية مع الموروث الجاهلي العربي ولا مع تجارب ومهارات الأمم السابقة والمجاورة كاليهود والنصارى والروم والفرس والأحباش والقبط. فحضور التجربة الإنسانية في السنة النبوية والسيرة مشهود ودلائله كثيرة، وهذا الاستيعاب للخبرة الإنسانية كان دافعا لأخذ النافع وطرح غيره، مما جعل الحضارة الإسلامية تستوعب في ثقافتها ومدنيتها الميراث العالمي كله. فكانت حضارة الإنسان. وهذا على عكس الديانات السابقة التي اتخذت من القطيعة المعرفية مسلكاً لها بحجة النقاء العقدي والتعالى الفكرى.

Abstract:

This paper treats the issue of communication and alienation from human experience with neighboring civilizations and ancient legacy of the age of ignorance going as far as the presence of this issue in the sunnah of the prophet muhamed (pb UH) and in thus life history, whether to enticing it or enhance it.

Therefore, the conversant with the prophet Muhamed's hadith and events will feel that interaction with others and benefit from their experiences and worldly wisdom. So; Islam did not break off full with Arabs and new legacy (before the coming of Islam) nor with the experimentations and skills of ancient and surrounding communities like: ferus; Christians, Romans, Prussians, Habasha, Catholic, Copts...etc.

As a result, the presence of human in the prophet's sunnah and life history is remarkable with many proofs.

Covering the human experience was to benefit from what is good and get rid of what is bad.

This is what led the Islamic civilization embrace in its culture and civism all world's legacy. That's why it became a human civ.

تمهيد: حوت السنة النبوية ذخيرة عظيمة وهديا إلهيا سائغا وخبرة إنسانية رشيدة، وتمثل هذا الهدى جيل الصحابة الذين انتفعوا من الميراث السابق، وحولوه إلى حركات نافعة للبشر في دولااب الحياة، إنه الواقع الذي غيرته كلمات النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله وأنامله وبارقات وجهه وخلجات قلبه وزفرات صدره وخطوات رجله التي كانت خطوات التاريخ الإنساني للسير نحو الحضارة والإنسانية الكاملة. وإذا كان تاريخ أوربا ينقسم قديمه عن وسيطه بسقوط روما. وإذا كان تأريخ البشرية يتخذ من ميلاد المسيح معلما تصاعديا أو تنازليا. فإن الحقيقة غير ذلك. فالتغير القيمي والفكري الذي أحدثته كلمات محمد صلى الله عليه وسلم في العالم القديم كان أعمق بدليل تحقيق مناطه في إنشاء أمة قدمت للحضارة الإنسانية ما أشاد به الأعداء قبل الأصدقاء.

والورقة المقدمة تناقش إشكالية الاتصال والانفصال مع التجارب الإنسانية والحضارات المجاورة والموروث الجاهلي، وحضور ذلك في السنة النبوية والسير المحمدية نقدا ونقضا وتتميم وإفادة واستفادة، إذ المستقرى لعديد الأحاديث والوقائع يشهد ذلك التفاعل مع الآخر من حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقطع العلائق كلية مع الموروث الجاهلي العربي ولا مع تجارب ومهارات الأمم السابقة والمجاورة والمختلفة إثنيا ودينيا كاليهود والنصارى والروم والفرس والأحباش والقبط... إلخ

فحضور التجربة الإنسانية في السنة النبوية والسير مشهود ودلائله كثيرة ووقائعه عديدة في كل مراحل الدعوة الإسلامية مكيها ومدنيها، وهذا الاستيعاب للخبرة الإنسانية كان دافعا لأخذ النافع منها وإطراح غيره، مما جعل الحضارة الإسلامية تستوعب في ثقافتها ومدنيتها الميراث العالمي كله. حيث آوت إليها الأمم الأخرى، وأرزت لها الثقافات المغايرة، فكانت حضارة الإنسان. وهذا على عكس الديانات السابقة التي اتخذت من القطيعة المعرفية والانغلاق العرقي والتجسد المذهبي مسلكا خاصا بها. وتدور إشكالياتها في قراءة جوانب التواصل والقطيعة مع التجارب المدنية والثقافية السابقة لظهور الإسلام، وتحديد مساحات هذا التفاعل من حيث هيمنة الشريعة الإسلامية وخلودها ونسخها لما سبق،

ومن حيث مرونتها في انتقاء النافع من الخبرات الإنسانية وتواصلها مع كريم الأخلاق وجميل السجايا.

ولاستفصال المقدمات السالفة فإننا سنقسم الورقة إلى الآتي معتمدين النصوص الأصيلة في السنة والسيرة منطلقا لمناقشة الإشكالية:

- الإسلام وميراث العالم القديم.
- السنة والموروث العربي الجاهلي.
- السنة والتجارب المجاورة (الفرس، الرومان).
- السنة وميراث الديانة اليهودية والنصرانية.

أولا: السنة وميراث العالم القديم

لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم في أم القرى بشيرا ونذيرا في بداية القرن السابع الميلادي (610م)، كان العالم القديم منقسما على كيانات سياسية كبيرة وصغيرة. أما الكبيرة فهي إمبراطوريات الروم البيزنطية التي تحكم أجزاء أوروبا والشام ومصر وشمال إفريقيا¹. وكذا الإمبراطورية الفارسية الساسانية التي تحكم فارس والعراق واليمن، وأجزاء من آسيا الوسطى². وأما الكيانات الأخرى فهي مجمل دول الصين والهند والحبشة، وباقي المسكونة كان يعيش حياة بدائية قوامها الإقطاعيات والقبائل المتنافرة. والذي يهم موضوعنا هو جزيرة العرب وما أحاط بها من دول ونظم مختلفة.

ففي الجزيرة العربية تناثرت مختلف الكيانات بين دول تابعة لنفوذ الإمبراطوريات الكبرى، ففي العراق دولة المناذرة التابعة لفارس، وفي الشام دولة

1- انظر: ديورانت ول: قصة الحضارة. ترجمة المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط1، بيروت، دار الجليل، 1998. ج 12 ص 207/ العربي السيد الباز: تاريخ الدولة البيزنطية، ط1، بيروت، دار النهضة العربية-د، ت- ص 115.

2- قصة الحضارة ج 12 ص 287.

الغساسنة التابعة لبيزنطة، وفي اليمن امتد نفوذ دولة فارس بعد طرد الأحباش منها³. وفي وسط كل ذلك كانت القبائل العربية تعيش حالة الفوضى السياسية بعد انهيار دولة كندة وانحرام حلف ربيعة. في حين عاشت مدن مكة ويثرب والطائف استقلالاً تاماً، أفادت منه مكة بنظام الإيلاف التجاري⁴ لتتبوأ مكانة سامقة بين جموع العرب، وخاصة بعدما علا نجمها في هزيمة الأحباش عام الفيل، حيث استطالت على العرب بنفوذها الديني والتجاري.

وإضافة إلى الانسداد السياسي الذي كانت تحياه الإمبراطوريتان القديمتان والتشرذم القبلي الذي عاشته الجزيرة العربية فإن الوضع الديني والثقافي كان صنواً لذلك الواقع من حيث الاحتراب المذهبي والتشتت الفرقي والاختلاف الديني، وليس مجازفة القول بأن القرن السادس الميلادي كان الأسوأ من حيث غياب هدايات الوحي وانحراف البشرية إلى المذاهب الوضعية وشيوع الوثنية⁵، وقد صدق النبي (عليه الصلاة والسلام) حينما قال: "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب"⁶ ولفهم علاقة السنة النبوية بالميراث الثقافي للعالم القديم فإنه يجدر بنا أن نمايز بين الأديان المتبوعة

3- انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك (ت نواف الجراح) ط1، بيروت، دار صادر، 2003. ج1 ص253/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي. ط15، بيروت، دار الجيل. مصر، دار النهضة. 2001. ج1 ص23.

4- انظر في الإيلاف: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000. ج20 ص139/ ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، (د، ت) ج30 ص558.

5- انظر: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين، الندوة العالمية للشباب الإسلامي. 1412. ص55.

6- صحيح مسلم: كتاب اللجنة رقم 2865/النسائي: السنن الكبرى رقم 8070/ابن الأثير الجزري: جامع الأصول من أحاديث الرسول. ذ (ت محمد حامد الفقي) ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1980. حديث رقم 9554.

والمذاهب الموجودة إبان بعثة النبي (عليه الصلاة والسلام) في جزيرة العرب وما جاورها لفهم علاقات الاتصال والانفصال بين السنة وهذا الميراث.

تميزت الجزيرة العربية وجناحها في الشام والعراق بوجود ما يأتي:

1- الوثنية: الدين الأبرز في الجزيرة العربية، وتسميته ديناً هو من قبل التجوز، إذ هو مجموع معتقدات وشعار وطقوس توالدت من رحم الأديان الوثنية القديمة، حيث تجاوزت فيه عبادة الكواكب والشمس والقمر والأصنام المنحوتة. إذ عكف العرب على مجموع هذه المعبودات المختلفة كما يدل على ذلك آيات القرآن الواصفة لتلك العبادات المنحرفة: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾⁷ فعبادة الشمس كانت سائدة في اليمن أيام حكم مملكة سبأ كما ورد في قصة سليمان عليه السلام وبلقيس⁸ في إخبار القرآن عنهم: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾⁹

أما المعبود الأهم فهي الأوثان المختلفة التي استقصاها ابن الكلبي في كتابه "الأصنام" والتي كان بعضها مستعاداً من العصور القديمة كمعبودات قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾¹⁰ فعلى الرغم من اندثار قوم نوح وتدميرهم بالطوفان إلا أن العرب لم يستنكفوا عن العودة لألهتهم، بل والتعبّد

7- سورة فصلت الآية 37.

8- ابن كثير أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الجليل، (د ت). ج 3 ص 348/تاريخ الطبري ج 1 ص 116.

9- سورة النمل الآية 24

10- سورة نوح الآية 23.

لأسمائهم¹¹. كما ظهرت في العرب بعض العبادات الأنثوية المتعلقة بتراث الشام الفينيقية حيث كانت عبادة بعل -الرجل- ﴿أندعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين﴾¹²، وعبادة اللات -الربة- في مدينة الطائف: ﴿أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾¹³ ولهذا شاع نسبة البنات لله من هذه العبادات الطوطمية الموغلة في القدم: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون﴾¹⁴

ومن المعلوم أن عرب مضر ومن جاورهم كانوا في الحملة على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام منذ عُمر وادي مكة بدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتني بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾¹⁵

إلا أن تطاول الزمن وانصرام النبوة من أرض العرب وطول الأمد جعلهم يتأثرون بالديانات المجاورة، فكان التبديل والتغيير الذي أحدثه عمرو بن لحي الخزاعي أيام كانت خزاعة سيدة الحرم، حيث جلب آلهة الشام ونصبها في الحرم وأمر الناس بعبادتها. كما ورد في الحديث: "رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سب السوائب"¹⁶.

11- السهيلي عبد الرحمن: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام الكلبي (ت عمر عبد السلام السلاوي). ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000. ج1 ص212.

12- سورة الصافات الآية 125.

13- سورة النجم الآيات 19-22.

14- سورة الزخرف الآية 19

15- سورة إبراهيم الآية 37.

16- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3520/صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم 2856. وانظر ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري. ط3، الرياض، مكتبة دار السلام، 2000. ج6 ص670.

كما أن تقديس الحجارة تناسل من ذات تعظيم أرض الحرم عندما كان الناس يأخذون حجراته للتبرك والطواف، ثم خلف الخلف فنسوا الأصل وعكفوا على عبادة كل مستحسن من الحجارة الصماء.

تعددت الآلهة العربية، فكان لكل قبيلة أو حلف إله يعبد ويزار و تقام حوله المواسم والأسواق والأعراس، فلقریش هبل، ولثقيف اللات، ولأهل يثرب مناة، ولسليم وثن دمار، ولطيئ يغوث، ولهذيل سواع، ولبنى كنانة صنمهم سعد، ولكلب صنم ود، ولذي الكلاع باليمن نسر، ولدوس وما جاورها ذو الخلصة الذي كانت حوله كعبة تسمى الكعبة اليمانية، وخطورته قال النبي (عليه الصلاة والسلام) في آخر حياته: "من يريحي من ذي الخلصة". فهدمه جرير بن عبد الله البجلي¹⁷.

وإضافة إلى ما سبق فإن قريشا ابتدعت بعد عام الفيل مذهبا جديدا سمته بدين الحمس وأحدثت فيه تقاليد جديدة في شعائر الحج لتمتاز به عن بقية العرب فكانوا: لا يقفون بعرفة ولا يفيضون من المشعر الحرام، ولا يأكلون ما تهديه العرب¹⁸. وهو ما نعتهم عليهم الآيات في سورة البقرة في قول الله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾¹⁹

كما أن العرب غرقت في بدع النسك والذبائح والأنعام التي تهلّ لغير الله، وقد وردت آيات عديدة في سورة الأنعام تنعي هذه التقاليد المبتدعة²⁰، وفي المائدة في قوله: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾²¹.

17- صحيح البخاري: كتاب المغازي رقم 4357/صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رقم 2476

18- السهيلي عبد الرحمن: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. ج2 ص185.

19- سورة البقرة الآية 199. وانظر الطبري محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تحقيق بإشراف عبد الحميد مذكور)، ط1، القاهرة، دار السلام، 2005. أثر رقم 3825 ج2 ص1082.

20- انظر: رضا محمد رشيد: تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999. ج8 ص105.

2-اليهودية: الديانة الثانية السابقة الحضور والقليلة الأتباع في جزيرة العرب، وكان لها وجود في قرى الحجاز الشمالية في وادي القرى وتيماء وفدك، والوسطى في خيبر ويشرب. كما عرفت اليهود في اليمن في الجنوب وقد اختلف المؤرخون في دخول اليهودية للجزيرة، والظاهر أن وجودها قديم منذ إسلام أهل سبأ، ولكن الحضور الأقوى كان بعد هدم الرومان لهيكل بيت المقدس أيام تيطس سنة 70م²².

فانحاز كثير من اليهود إلى الحجاز وعملوا قراه، ودخلوا في تحالفات مع بعض القبائل، وشكلوا قوة اقتصادية مهمة عمادها التجارة والصياغة والزراعة.

امتازت اليهودية بانفتاحها النسبي، مقارنة بانغلاقها التبشيري على مستوى العرق، فقد دخلت جملة من قبائل اليمن بتأثير حبرين يهوديين في قصة إخمادهما للنار في أيام تبع أبي كرب أسعد حيث "أصفت عند ذلك حمير على دينه، فمن هنالك وعن ذلك أصل اليهودية باليمن."²³

ساهمت الكتابية اليهودية وعلو الأفق الثقافي المتصل بنبوات بني إسرائيل في صعود نجم اليهود، فتأثر بهم بعض العرب الذين دانوا بدينهم مثل السموأل بن عاديا صاحب الشاعر امرؤ القيس بن حجر الكندي²⁴. وكان بعض العرب يسترضعون أبناءهم عندهم لما كان عندهم من دونية ثقافية، كما هو الوارد في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾²⁵ في أن المرأة تكون مقلاة- أي لا يولد لها- فتندر إن ولدت ولدا أن تهوّه، فلما كان إجلاء بني النضير، قال الأنصار أبناؤنا، فنزلت الآية²⁶.

21- سورة المائدة الآية 103. انظر: تفسير التحرير والتنوير ج 7 ص 72.

22- راجع مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد: اليهود في العالم القديم. ط1، دمشق، دار القلم. بيروت، الدار الشامية، 1995. ص 241/ وراجع ديورانت: قصة الحضارة ج 12 ص 435.

23- الروض الأنف ج 1 ص 95.

24- محمد علي البجاوي: أيام العرب في الجاهلية. صيدا، المكتبة العصرية. ص 121/ ابن الأثير عز الدين: الكامل في التاريخ، ط6، بيروت. دار الكتاب العربي (د.ت). ج 1 ص 308.

25- سورة البقرة الآية 252.

26- تفسير الطبري أثر رقم 5791، ج 2 ص 1494.

والحاصل أن الحضور اليهودي كان مشهوداً، بل إن من مسببات إسلام الأنصار ما كان يسمونه من اليهود من خبر نبي أظلم زمانه، حيث إنهم كانوا في حروبهم معهم يستفتحون بالنبي (عليه الصلاة والسلام) ويقولون: "نبي أظلم زمانه. فنتبعه ونقاتلكم معه قتل عاد وإرم".²⁷ وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾²⁸.

3- النصرانية: عرفت الجزيرة العربية النصرانية بعد ظهورها، وخاصة أجزاءها الشمالية المجاورة لفلسطين حيث تنصرت قبائل عديدة مثل غسان ولخم وجذام، كما عرفت بعض قبائل العراق كإياد وتغلب²⁹، وانتشرت الأديرة في تلك الربوع، وعرف العرب شعراء نصرانيين كعدي بن زيد العبادي، وأميرة بن أبي الصلت الثقفي، كما انتشرت النصرانية بكثرة في الجنوب في نجران كما هو الوارد في قصة المباهلة الواردة في سورة آل عمران، وأخبار العهد الذي كتبه النبي (عليه الصلاة والسلام) لنصارى نجران³⁰.

كما أسهمت دولة الأحباش أيام حكمها لليمن في نشر النصرانية، ويقال أن قصة أصحاب الأخدود إنما وقعت بنجران أيام امتحان الملك ذو نواس اليهودي للنصارى الموحدين³¹، وعرف العرب الأخبار والمبشرين، فقد كان: "القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب، والجنة والنار، وقد ورد في القرآن كثير من الآيات تحكي أقوالهم وتفند مذاهبهم، مما يدل على انتشار هذه

27- الروض الأنف ج 4 ص 45.

28- سورة البقرة الآية 89. وانظر الرازي فخر الدين: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1990. ج 3 ص 164.

29- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي. ج 1 ص 63

30- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار الإرشاد، ص 111.

31- تفسير القرطبي ج 19 ص 491/ تفسير الرازي ج 31 ص 106/ تفسير ابن كثير ج 4 ص 494-495/- الروض الأنف، ج 1 ص 107-108 / تاريخ الطبري ج 1 ص 260.

التعاليم بينهم³².

كما أن كتب السيرة تحفل بذكر أفراد نصارى في الحجاز مثل ورقة بن نوفل الذي ورد ذكره في أول المبعث: وكان امرؤ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب³³

وكذلك الغلام جبر النصراني الذي اتهمت به قريشا النبي بأنه يتعلم منه³⁴، كما ورد في تفسير: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾³⁵

كما ورد اسم الغلام عداس أصيل نينوى بالعراق، والذي عطف على النبي يوم آذاه سفهاء الطائف،³⁶ فلما أخبره عن بلده؟ قال (عليه الصلاة والسلام) : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.³⁷

يذكر الإخباريون اسما نصرانيا شهيرا هو أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي تنصّر وترهب ولبس المسوح، وكان تاجرا يلج الشام: فيتلقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى، وقرأ الكتب، وقد علم أن نبيا سبيعت من العرب، وكان يقول أشعارا على آراء أهل الديانة يصف فيها السماوات والأرض والقمر والملائكة وذكر الأنبياء والمبعث والنشور والجنة والنار، ويعظم الله عز وجل ويوحده. ولما بلغه ظهور النبي (عليه الصلاة والسلام) اغتاز

32- انظر أحمد أمين: فجر الإسلام. بيروت، دار الكتاب العربي، د، ت. ص 27.

33- صحيح البخاري: كتاب بدأ الوحي رقم 3/ صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم 160/ الروض الأنف ج 2 ص 264. ونظر ابن كثير أبو الفدا الدمشقي: البداية والنهاية، ط6، بيروت، دار المعارف، 1986. ج 3 ص 8.

34- انظر تفسير القرطبي ج 10 ص 117/ تفسير ابن كثير ج 2 ص 567.

35- سورة النحل الآية 103.

36- صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير رقم 1795/ صحيح البخاري: كتاب بدأ الخلق رقم 3231.

37- الروض الأنف ج 4 ص 29

لذلك وتأسف، وجاء المدينة ليسلم فرده الحسد.³⁸ وقال فيه النبي (عليه الصلاة والسلام) بعدما سمع شعره وكان يستنشد رواته: "كاد أن يسلم"³⁹

وذكر بعض المفسرين أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾⁴⁰ إذ روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنها نزلت في أمية، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله أرسل رسولا في ذلك الوقت، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله محمداً (عليه الصلاة والسلام) صده وكفر به⁴¹

والشاهد من هذه الإشارات الحضور الأكيد للنصرانية في الجزيرة العربية، وسوف يكون لهذا الحضور دوره السلبي في إثارة الحروب ضد الدعوة الإسلامية من قبائل الشام وحلفاء الرومان في غزوات مؤتة (8هـ) وتبوك (9هـ)⁴².

4- المجوسية: الديانة الأقل انتشاراً بين العرب بسبب انتساب فارس لها، وكان بينهم وبين العرب إحن ومحن عديدة في العراق آخرها موقعة "ذي قار" بعد إذلال مناذرة الحيرة وملكهم النعمان بن المنذر⁴³.

كما أنها لم تستغو العرب كثيراً بسبب ما في تشريعاتها الاجتماعية من نكارة لا ترضاهم أخلاق العرب كنزواج المحارم، ولكن هذا لم يمنع من وجود بطون عربية تمجست في شرق الجزيرة العربية في البحرين، وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما ظهر

38- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (ت محمد سعيد اللحام)، ط1، بيروت، دار الفكر، 2000. ج1 ص81.

39- صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار رقم 3841/ وانظر البداية والنهاية ج2 ص205.

40- سورة الأعراف الآية 175

41- تفسير القرطبي ج7 ص203.

42- انظر فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي. ط1، دمشق، دار القلم، 2005. ص201.

43- ابن الأثير عز الدين: الكامل في التاريخ. ج1 ص285/ البحاي: أيام العرب ص6.

أخذ الجزية من مجوس هجر⁴⁴.

كما عرف العرب بعض تقاليد المجوسية في تقديس النار، حيث ورد في أخبار خالد بن سنان العبسي - المختلف في نبوءته - أنه أطفأ نارا خرجت بالحجاز وكادت تفتن العرب⁴⁵.

وورد أن بعض ملوك العرب الذين عملوا للأكاسرة تمجسوا، بل ودانوا ببعض المذاهب المزدكية كالمزدكية التي تنادي بإباحة المحارم وإشاعة المال⁴⁶، ومنهم حجر بن آكل المرار ملك كندة الذي كان ظهيرا لكسرى قباذ المزدكي⁴⁷، وظهر أثر ذلك في بعض الأشعار الإباحية لابنه الشاعر امرؤ القيس. كما أن الآداب الفارسية كانت حاضرة في الثقافة المتداولة حيث يحكي الإخباريون أن النضر بن الحارث كان قد علم علوم الفرس وأخبارهم، فإذا انصرف النبي (عليه الصلاة والسلام) من مجلسه في مكة جلس محله. وحدث بأحاديث رستم واسفنديار. ويقول: ما محمد بأحسن حديثا مني، إنما حديثه أساطير الأولين⁴⁸. وذكر بعض المفسرين⁴⁹ أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾⁵⁰.

5- الحنفاء: وهم مجموعة من العرب أنكروا العبادات والعادات الجاهلية، واحتك بعضهم بالموروث النصراني واليهودي، وانتسب بعضهم إلى هذه الديانات، وفيهم

44- البخاري: كتاب الجزية والموادعة رقم 3157/ سنن أبي داود: كتاب الخراج والإمارة والفقه 3043.

45- البداية والنهاية ج 2 ص 271/ ابن حجر: الإصابة، بيروت، دار إحياء التراث العربي د-ت. ج 2 ص 154.

46- انظر الشهرستاني: الملل والنحل (ت محمد سيد الكيلاني)، بيروت، دار المعرفة، (د، ت) ج 1 ص 249.

47- تاريخ الطبري ج 1 ص 249/ الكامل في التاريخ ج 1 ص 241.

48- الروض الأنف ج 3 ص 69.

49- تفسير القرطبي ج 6 ص 260/ تفسير التحرير والتنوير ج 7 ص 179

50- سورة الأنعام الآية 25

من فضّل الوقوف على الحياد، أو التّرقّب لمبعث النبي الخاتم حسب ما كان متداولاً في الأوساط الدينية، ومنهم خالد بن سنان العبسي، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل عمّ عمر بن الخطاب ووالد سعيد بن زيد أحد المبشرين بالجنة رضي الله عنهما، وكان شاعراً جالاً في أنحاء الشام والعراق باحثاً في الديانات المتبوعة، وانتهى به الحال إلى استنكار عبادات وعادات قريش⁵¹، ممّا دفعها إلى عزله ونفيه عن المجموع القرشي. ومنهم عبيد الله بن جحش من بني أسد من قريش، وكان من جملة المتبرئين من الأعراف الوثنية، وقد خرج من مكة باحثاً عن الحقيقة الدينية، وانتهى به الأمر إلى الوقوف على الحياد، أو الالتباس حتى جاءت البعثة الإسلامية، فأسلم ثم هاجر إلى الحبشة، ثم ارتد إلى النصرانية⁵².

إضافة إلى هذه الظواهر الثقافية والوثنية التي عرفت في الجزيرة العربية والخبرات الإنسانية المتعلقة بالمعرفة وعلوم الفلك والتنجيم والطب والحساب والفلسفة المختلفة المذاهب التي كانت تمور بها حواضر العالم القديم وخاصة موروّثات الفلسفة الإغريقية الهيلينية، والفرق المسيحية المتحاربة (اليعاقبة والنساطرة والملكانية). والمذاهب المجوسية الحديثة (المزدكية، المانوية، والمرقونية) عرفت في الجزيرة بعض المذاهب المحدثّة كالدهرية المقتبسة من فارس، حيث كان فيهم إنكار شديد للبعث، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾⁵³، وذكر الإخباريون أنّ أهل مكة ومنهم أبا سفيان أخذوا هذا القول في الجاهلية عن أهل الحيرة⁵⁴. كما تواجدت الصابئة في العراق وهم عبّاد الكواكب والروحانيات. وقد كان النبي وأصحابه يُعيّرون بأنهم صابئون، أو صبئوا عن دين أقوامهم⁵⁵. هذا إضافة إلى

51- صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم 3827.

52- انظر البداية والنهاية ج 2 ص 238/ السهيلي: الروض الأنف ج 2 ص 230.

53- سورة الجاثية الآية 24.

54- انظر علي سامي النشار: نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، ط8، مصر، دار المعارف، د- ت. ج 1 ص 198.

55- صحيح البخاري: كتاب المناقب 3522/ صحيح مسلم: كتاب الفضائل 2474.

ظواهر السحر والكهانة والعرافة التي اشتهرت بها بعض قبائل العرب. والسحر الذي برع فيه اليهود ومارسوه، وقد وردت أخباره في قصة سحر لبيد بن الأعصم للنبي (عليه الصلاة والسلام)⁵⁶.

والخلاصة أن العالم القديم الذي بعث فيه النبي (عليه الصلاة والسلام) لم يكن خلوا من الأفكار والمذاهب والنحل والملل والطوائف، وهذا ما جعل الخصومة شديدة من المخالفين، حتى من قريش الأميين فكان لتجارهم واحتكاكهم بالثقافات المجاورة دافعا لإنكار الدعوة الجديدة، وكانوا أهل لجاح وحجاج في الخصومة كما قال تعالى: ﴿بل هم قوم خصمون﴾⁵⁷

فكيف بنى الإسلام علاقته الثقافية بالموروث السالف الذكر، فهل مارس القطيعة الكلية، أم الانتقاء الإيجابي الموصول برسالات السماء وهدى الأنبياء؟
ثانيا: السنة النبوية والموروث العربي الجاهلي.

يطلق مصطلح الجاهلية على الفترة التاريخية السابقة لظهور الإسلام وهي توازي التاريخ العربي المروي شعرا ونثرا وقصصا وأياما منذ انصرام عهد إسماعيل عليه السلام، وإن كان المروي الموثق لا يزيد على مدة قرنين⁵⁸.

وردت الجاهلية في القرآن الكريم في مواضع أربعة متعلقة بتوصيف الحياة العربية الحضرية والبدوية في قوله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾⁵⁹، وقوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾⁶⁰، وقوله: ﴿ولا

56- صحيح البخاري: كتاب الطب رقم 5763/ صحيح مسلم: كتاب السلام الطب 2189

57- سورة الزخرف الآية 58.

58- انظر مصطفى الرافعي: تاريخ آداب العرب. ط5، بيروت، دار الكتاب العربي، 1999. ج1 ص52

59- سورة آل عمران الآية 154.

60- سورة المائدة الآية 50.

تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى⁶¹، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْحَمِيَةَ حَمِيَةً جَاهِلِيَّةً﴾⁶²

وجاء في السنة الشريفة ما يحمل على ذم سلبات الجاهلية مثل الاعتزاز بالعرق
واللون، ومن ذلك ما قاله النبي (عليه الصلاة والسلام) لأبي ذر الغفاري عندما عير رجلا
بقوله: يا ابن السوداء. قال: "إنك امرؤ فيك جاهلية"⁶³.

وجاء في خطبته (عليه الصلاة والسلام) في فتح مكة قوله: إن الله قد أذهب نخوة
الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب، وفي رواية: كلكم لآدم
وحواء طف الصاع بالصاع إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وفي خطبة حجة الوداع: "إن ربا
الجاهلية موضوع..... وإن دماء الجاهلية موضوعة.... إن مآثر الجاهلية موضوعة غير
السدانة والسقاية."⁶⁴

حمل لفظ الجاهلية المداليل السلبية التي كان يحياها العرب قبل الإسلام من حياة
الفوضى والانقسام وأكل القوي للضعيف، وشيوع الربا والزنا، والإغارة والسلب وسائر
الأخلاق المذمومة، والعبادات المردولة للأوثان، إلا أن أهم المداليل التي حملت النصيب
الأوفر من الذم هي ما تعلق بالعبادات الوثنية، وما اندرج تحتها من طقوس وشعائر في
النسك والذبائح، وقتل الأولاد خشية الفقر، والعكوف على الأنصاب والأزلام.
ومن ذلك النكير الذي ورد عن النبي (عليه الصلاة والسلام): أعظم الذنوب: "أن
تجعل لله ندا وقد خلقتك، وأن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، ثم قال: أن تزاني حليلة
جارك"⁶⁵.

61- سورة الأحزاب الآية 33.

62- سورة الفتح الآية 26.

63- صحيح البخاري: كتاب الإيمان رقم 30/ صحيح مسلم: كتاب الإيمان والندور 1661.

64- سنن أبي داود: كتاب البيوع 3334/ سنن ابن ماجه: كتاب المناسك 3055.

65- البخاري: كتاب التفسير 4477/ مسلم: كتاب الإيمان 37/ سنن الترمذي: كتاب التفسير 3139.

وكذا حديث السبع الموبقات: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات⁶⁶.

ومن المداليل السلبية التي قاطعها الإسلام وشتتت عليها السنة مسألة الانقسام والتشردم، وانحلال الطاعة، وغياب القانون واستمراء حياة البدو والغزو. ولأجل هذا أوجبت السنة الهجرة إلى المدينة، بل إنها جعلت مسألة الحقوق المتوجبة على الدولة تجاه المسلم لا تستحق إلا بالهجرة إلى دار المسلمين لتكثير سوادهم وتجنب ويلات الحروب مع المشركين وذلك في مثل قول النبي (عليه الصلاة والسلام): "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قيل يا رسول الله لا تتراءى نارهما؟ قال: لا تتراءى نارهما"⁶⁷. وفي ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁶⁸ بل وإنه وفي سبيل تحضير الأمة الجديدة غيّر النبي (عليه الصلاة والسلام) اسم يثرب إلى اسم المدينة الدال على معنى الحضارة والاجتماع، وجعل عقاب من يستعيد الاسم القديم الدال على الحرب والفقر والترب أن يقول المدينة عشر مرات كفارة على خطئه، وذلك في حديث النبي (عليه الصلاة والسلام): "من قال للمدينة يثرب فكفارته أن يقول المدينة عشر مرات"⁶⁹. وهذا الأمر بالتكرير لترسيخ الاسم الجديد ونسيان القديم.

حملت أحاديث عديدة على حياة التبدي والتفلّت من الأعراف، وفي ذلك ورد قوله (عليه الصلاة والسلام) في حديث ابن مسعود "الإيمان ههنا - وأشار بيده إلى اليمن -

66- صحيح البخاري: كتاب الوصايا 2766/ مسلم: كتاب الإيمان 38/ سنن أبي داود: كتاب الوصايا 2874.

67- سنن أبي داود: كتاب الجهاد رقم 2645/ سنن الترمذي: كتاب السير رقم 1604.

68- سورة الأنفال الآية 72.

69- المتقي الهندي: كنز العمال رقم 34943.

والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذنان الإبل، من حيث يطلع قرنا الشيطان ربيعة ومضر⁷⁰. وربيعة ومضر هما عصب قبائل البدو في نجد وتهامة والحجاز.

لقد حملت السنة حملة انفصال وقطيعة شديدة مع موروثات الوثنية المنافية لكرامة الإنسان الذي يحط من إنسانيته بعبادته مخلوقات مثله، كما رفضت في الشق السياسي حياة الفوضى والتبدي الملازمة للفردية المعاكسة للاجتماع الذي هو شرط بناء الحضارة واكتمال العمران، وهو ما حاول النبي (عليه الصلاة والسلام) جاهدا قدره تقويمه بإيجاب الهجرة والتعليم ودفع الزكاة علامة على طاعة الدولة، والخروج للجهاد المشروع علامة على الانقياد للقيادة، كما في الآيات في سورة الفتح: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾⁷¹ ولكن هذه الجهود الحثيثة لتقويم مسالك البدو سرعان ما تشتت بمجرد وفاة النبي (عليه الصلاة والسلام) ولما يستقم حال الأعراب الذين وصفهم القرآن في سورة الحجرات وهي من أواخر ما نزل في العام التاسع للهجرة أي عام الوفود بقوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾⁷²، ولأجل هذا فإنه بمجرد تسامع العرب بمرض ثم وفاة النبي (عليه الصلاة والسلام) حتى ارتد أكثرهم بين متابع لأنبياء كذبة، أو مانع لدفع الزكاة، أو رافض طاعة الخليفة، ولم يثبت على الإسلام إلا أهل الحواضر الثلاث مكة والمدينة والطائف. رغم أن ثقيف سكان الطائف كانوا آخر الناس إسلاما⁷³. وهو ما يدل على قيمة المدينة والعمران التي جاءت السنة تدعو إليها بالقول والفعل والعقوبة. فهو الانفصال عن التجربة الإنسانية الجاهلية في الحكم والاجتماع.

70- صحيح البخاري: كتاب المغازي رقم 4387/ صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم 51.

71- سورة الفتح الآية 11.

72- سورة الحجرات الآية 14.

73- الروض الأنف ج 7 ص 413. / ابن القيم: زاد المعاد، ط1، مصر، دار ابن الهيثم، 2005 ج 2 ص 150.

هدفت السنة النبوية إلى تغيير نمط الحياة الجاهلية الذي قعد بالعرب عن الدخول في مصاف الحضارة، فأُسست مفاهيم أخرى وأُحلت مصطلحات بديلة للمتداول الجاهلي. فأُوحدت مفهوم الأمة بدل القبيلة، ومفهوم الجهاد المشروع بدل الغزو والسلب، ومفهوم الشريعة بدل العرف القبلي، ومفهوم الطاعة المتبصرة بدل المرجعية العشائرية، ومفهوم المساواة بدل التراتب الاجتماعي الجاهلي.

تعاملت السنة النبوية مع الموروث الجاهلي والخبرة العربية بحسب موقعها من كليات الإسلام وقيم الدين، فاستعادت الجميل وثمنتته وكثرتته، وطرحت الخبيث وحاربتته ومحتته.

ويمكننا أن نميز بين معاني الانفصال والاتصال في هذا المضمار من حيث تفصيل

الآتي:

فمن حيث الانفصال حملت السنة النبوية حملة شعواء على دعاوي العنصرية العرقية التي أذهبت ربح العرب وجعلتهم قبائل متنافرة وعشائر متناحرة كما هو المذكور في كتب أيام العرب.

ومن ذلك اعتبار هذه الدعاوي جاهلية، كما ورد في غزوة بني المصطلق عندما كسع رجل من المهاجرين أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا لأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فخرج النبي (عليه الصلاة والسلام) فقال: فما بال دعوى الجاهلية، ثم قال: ما شأنهم؟ فأخبر بكسعة المهاجري للأنصاري. قال: فقال النبي (عليه الصلاة والسلام): دعوها فإنها خبيثة⁷⁴

ولتبيد العصبية القبلية المنابذة للولاء الديني حرمت السنة كل أسبابها القريبة والبعيدة، ومن ذلك النهي عن خلاها، كقول النبي (عليه الصلاة والسلام) في تحريم التفاخر بمآثر الآباء من حديث ابن مسعود: "ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"⁷⁵

74- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3518/ صحيح مسلم: كتاب البر والصلة رقم 2584.

75- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3519/ صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم 103.

ولكن السنة لم تقطع العلائق كلية مع المنظومة القبلية باعتبارها نسيجاً اجتماعياً ضرورياً لتسيير حياة الناس في تلك الفترة. ولهذا لم يمح النبي (عليه الصلاة والسلام) الانتساب للقبيلة بدليل قوله في الحفاظ على شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة آنذاك على التناصر والعاقلة في الديات: "ليس من رجل ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كُفر، ومن ادّعى قوماً ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار"⁷⁶

وبضمنية أخرى متعلقة بالثناء على تجمعات قبلية اتخذت من القبيلة وحدة اجتماعية لنصرة الحق وحرب الباطل، كما ما جاء في حق قبائل غفار، وأسلم، وأشجع، ومزنية. كما ورد في حديث أبي هريرة: "قريش والأنصار وجهينة ومزنية وأسلم وغفار وأشجع موالى، ليس لهم موالى دون الله ورسوله"⁷⁷. وقول النبي من حديث أبي هريرة: "أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها"⁷⁸

إضافة إلى ذلك قدّم النبي (عليه الصلاة والسلام) بديله الأفضل في جعل الولاء للإيمان مقدماً على القبيلة عندما أطلق على مجموع القرشيين اسم المهاجرين، وعلى مجموع قبائل الأوس والخزرج اسم الأنصار الذين استحقوا به رضوان الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁷⁹

كما أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يُلغ محاسن الأعيان الجاهليين الذين سحّبوا مكرماتهم من الجاهلية إلى الإسلام، وفي ذلك ورد حديث: "تجدون الناس معادن، خيارهم

76- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3508/ صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم 61.

77- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3512/ صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رقم 2520.

78- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3514/ صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رقم 2514.

79- سورة التوبة الآية 100.

في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجحدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية.⁸⁰

لم تمنع السنة النبوية من التواصل مع الخلال الحميدة، فللغرب مكارم وأخلاق رفيعة كالجوار والضيافة والنصرة ما ضربت به الأمثال وسارت به الركبان، وفي ذلك نقرأ أحاديث عديدة كقوله (عليه الصلاة والسلام) : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"⁸¹ ولأجل هذا وجدنا كما هائلا من الأحاديث المتواصلة مع الموروث العربي الذي بعث فيه الإسلام، ومن ذلك ما يأتي:

أ- الإعلاء من البلاغة العربية الحاوية للحكمة والشعر الحسن. ومن ذلك حث النبي (عليه الصلاة والسلام) أصحابه على قول الشعر وتدارس أيام العرب، فقد كان يسمر مع أصحابه ويخوضون في أحاديث الجاهلية وأيامها. ومن أدل الأحاديث الواردة في ذلك حديث "أم زرع" الطويل في سمر النبي مع زوجته⁸². وعندما سمع النبي خطيب بني تميم في عام الوفود قال: "إن من البيان لسحرا"⁸³.

ب- تعظيم شعائر الحج والعمرة وتأمين مسالكهما، وبسبب ذلك وقع النبي (عليه الصلاة والسلام) صلح الحديبية وقال: "والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها"⁸⁴.

ج- تعظيم مسألة الجوار والحماية التي كانت العرب تهدف نخورها دونهما، وهو ما أكدته القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁸⁵

80- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3493/ صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رقم 2526

81- مسند أحمد (أبو هريرة) رقم 5217/ البيهقي: السنن الكبرى: رقم 21301.

82- صحيح البخاري: كتاب النكاح رقم 5189/ صحيح مسلم: كتاب الفضائل رقم 2448.

83- صحيح البخاري: كتاب النكاح رقم 5146/ سنن أبي داود: كتاب الأدب رقم 5012.

84 - صحيح البخاري: كتاب الشروط رقم 2731/ الروض الأنف ج 7 ص 56/ زاد المعاد ج 2 ص 56.

وقد فتح النبي (عليه الصلاة والسلام) مسألة الجوار لعموم المسلمين رجالهم وإنائهم، في قوله لأم هانئ بنت أبي طالب عام فتح مكة، وقد أمنت مشركين: "قد أجرنا من أجزت يا أم هانئ"⁸⁶. وقوله (عليه الصلاة والسلام): "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم"⁸⁷.

د- الإفادة من الطب العربي الموروث الطبيعي والروحي الخاليين من الشرك، فقد أمر النبي (عليه الصلاة والسلام) الشفا بنت عبد الله العدوية وكانت ترقى في الجاهلية من النملة، فأمرها أن تعلم رقية النملة لأم المؤمنين حفصة رضي الله عنها⁸⁸. في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا نرقى في الجاهلية. فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم. لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك"⁸⁹.

هـ- الإفادة من التجربة العربية في قضايا الزراعة والرعي، والاهتمام بتنمية الثروة الحيوانية من إبل وغنم، وتحصيل الأمن الغذائي كما في حديث تأبير النخل⁹⁰.

و- الإفادة من بعض التشريعات الموروثة في القصاص والدماء كما ورد في أحاديث القسامة⁹¹، والعاقلة عندما يقتل مقتول ولا يعرف قاتله، فيحلف المتهمون ويدفعون ديته.

وعليه فلم تكن السنة النبوية لتردم الخبرات الإنسانية الصالحة لدى العرب في جاهليتهم. وإنما كانت تقيم المعوج، وتستعيد الجميل، وتمحق السيئ البين الضرر.

ثالثاً: السنة النبوية والتجارب المجاورة (الفرس، الرومان)

85- سورة التوبة الآية 6.

86- صحيح البخاري: كتاب الجزية والموادعة رقم 3171/ صحيح مسلم: كتاب الحيض رقم 336.

87- سنن أبي داود: كتاب الجهاد 2751/ سنن ابن ماجه: كتاب الديات 2683/ مسند أحمد رقم 6692.

88- سنن أبي داود: كتاب الطب رقم 3887/ مسند أحمد 26493.

89- صحيح مسلم: كتاب السلام الطب رقم 2200/ سنن أبي داود: كتاب الطب رقم 3886.

90- صحيح مسلم: كتاب الفضائل رقم 2363/ مسند أحمد (عائشة) رقم 9682.

91- صحيح مسلم: كتاب القسامة رقم 1668/ صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3845.

ولدت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة مستقلة عن التأثيرات السياسية التي خضعت لها دول العرب القديمة، والتي رضخ أغلبها لنفوذ الإمبراطورين القديمين كدول كندة والمناذرة والغساسنة. ولأجل السوالف الماضية من تأثير الدولتين في الجزيرة العربية ومحاولات التسلل والتدخل فيها في تحارب سابقة كاحتلال الفرس لليمن وطرد الأحباش منها. أو محاولة الروم التّفاذ للجزيرة بتحريك حلفائهم في الحبشة لغزو مكة كما حصل عام الفيل⁹²، وضع النبي (عليه الصلاة والسلام) الحراك القائم والاحتراب الدائم بين الدولتين نصب عينيه دائماً. وكان تعامله مع الدولتين ومع ميراثهما الإنساني والعلمي فريداً من حيث الإفادة من تناقضات الأوضاع بينهما لبسط هيمنة الدولة الإسلامية على باقي الجزيرة العربية، ومن حيث الاستفادة من الخبرات الإنسانية التي تعين الدولة الوليدة في حركتها الحضارية، وفهم هذه المعادلات وشرح تلك العلاقات المتصلة أو القطيعة المنفصلة في التعامل مع التجارب الإنسانية، فإننا سنعرض إلى الآتي:

أ- دولة وحضارة فارس: حضارة عريقة يزيد عمرها عن ألفي سنة، عرفت مختلف الأنظمة الحاكمة من الميديين حتى الساسانيين⁹³. وعرفوا ديانات عديدة أهمها المجوسية الزرادشتية⁹⁴. وصفهم صاعد الأندلسي بقوله: "أهل العز الشامخ والشرف الباذخ، أوسط الأهم داراً، وأشرفها إقليماً، وأسوسها ملوكاً، ولا نعلم أمة غيرهم دام لها الملك، وكانت لهم ملوك تجمعهم ورؤوس تحامي عنهم من ناوأمهم، وتغالّب بهم من عاداهم، وتدفع ظالمهم عن

92- تاريخ ابن خلدون، ط، 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992. ج 2 ص 71/تاريخ الطبري ج 1 ص 253.

93- انظر: البيروني: الآثار الباقية من القرون الخالية. بيروت، دار صادر. د، ت ص 135/مروج الذهب ج 1 ص 256/تاريخ الطبري ج 1 ص 228/قصة الحضارة ج 2 ص 415.

94 - الشهرستاني: الملل والنحل. ج 1 ص 236.

مظلومهم، ويحملهم من الأمور على فيه حظهم وعلى اتصال ودوام وأحسن القيام وانتظام يأخذ ذلك آخرهم عن أولهم وغابهم عن سالفهم.⁹⁵

لقد تفاعل النبي مع الوضع القائم لفارس التي كانت القوة الأولى في العالم بعدما كسرت جيوش الرومان بما ورد في القرآن الكريم من حكاية هذا الانقلاب في موازين القوى لصالح الجيوش ضد أهل الكتاب الروم، في ما جاء في سورة الروم: ﴿أَلَمْ غَلِبْتَ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ بَعْدَ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁹⁶

وقد جاء في الآثار أن مشرقي قريش فرحوا بانتصار الفرس على الروم سنة (615م)، وحزن المسلمون، وقام أبو بكر الصديق بمراهنة أمية بن خلف على انتصار الروم تالياً، وفاز في الرهان بعدما انتصر الروم ثانياً. ويقال إن النصر كان في أيام صلح الحديبية، فكانت الفرحة فرحتين⁹⁷.

وفي العهد المدني استشرّف النبي (عليه الصلاة والسلام) فتح فارس لصحابته، فجاءت أحاديث كثيرة في هذا المجال منها قوله (عليه الصلاة والسلام) من حديث جابر بن عبد الله: "عصية من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى".⁹⁸

95- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم (ت حياة العيد بوعولان) ط1، بيروت، دار الطليعة، 1985. ص59-60.

96- سورة الروم الآيات 1-7.

97- تفسير القرطبي ج14 ص4/ تفسير التحرير والتنوير ج21 ص145/ سنن الترمذي: كتاب التفسير رقم 3204.

98- صحيح مسلم: كتاب الإمارة رقم 1822.

وعندما وفد إليه عدي بن حاتم الطائي وكان نصرانيا، وجاء مترددا للدخول في الإسلام، فسأله النبي (عليه الصلاة والسلام) فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الضعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحدا إلا الله. فقلت في نفسي: فأين دَعَار طيء الذين قد سَعَرُوا البلاد؟، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز...⁹⁹

وجاء في حديث أبي هريرة نفس الاستشراف المؤذن بذهاب ملك الأكاسرة: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله."¹⁰⁰

إن هذا الاستشراف الذي تحققت علائمه من مقدمات سلبية لنظام الحكم السائد في بلاد فارس والذي انتقدته السنة النبوية من حيث قيامه على العسف والجبروت، وتقليك غير ذوي الرأي والقوة.

فقد جاء في السنة النبوية ما ينعي على تحكّم الأكاسرة في رقاب العباد وأديانهم، إذ كان الناس على دين ملوكهم، فعندما أرسل النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام فجاء في الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فأني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحقّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن

99- صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام رقم 3595.

100- صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير رقم 3027/ صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة رقم 2918.

إثم المجوس عليك." فلما قرأه مزقه، وقال: يكتب إلى هذا وهو عبدي¹⁰¹. وكانت النتيجة أن النبي (عليه الصلاة والسلام) دعا عليهم أن يمزقوا كل ممزق¹⁰².

كما ورد في السنة النكير على تجربة الحكم في فارس بعدما قتل كسرى أبرويز - بعد دعاء النبي عليه - فتشتت أمر الدولة، حيث تولت الحكم امرأة هي بوران، فبلغ الخبر النبي (عليه الصلاة والسلام) فقال: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"¹⁰³

كانت هذه الأحاديث انتقاداً للتجربة السياسية الفارسية التي ستهوى أمام جيوش المسلمين لاختلاف الموازين الاجتماعية التي جعلت الدولة الظالمة تنهزم أمام طلائع الحق التي عبّر عن أخلاقها ربيعي بن عامر التميمي أمام رستم الفارسي قبيل القادسية بقوله: "الله بعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام."¹⁰⁴

لم تكن القطيعة التي أحدثتها السنة النبوية والسيرة الرشيدة للنبي (عليه الصلاة والسلام) مع التجربة الإنسانية للنظام الفارسي لتمنع من التواصل معه في خبراته الحربية والاجتماعية، فقد كانت الحكمة الإنسانية تجدد متابها في دولة المدينة التي جمعت محاسن العرب وحكمة الفرس ونظام الروم.

يطبق الإخباريون على أن المرجع في النصر الذي تحقق في غزوة الخندق عام خمس للهجرة عندما حوصرت المدينة المنورة من جموع الأحزاب التي تزيد على عشرة آلاف مقاتل يظاهروهم يهود بني قريظة¹⁰⁵، إنما كان لفكرة فارسية حربية استعادها الصحابي سلمان

101- انظر تاريخ الطبري ج 2 ص 439.

102- صحيح البخاري: كتاب المغازي رقم 4424.

103- صحيح البخاري: كتاب الفتن رقم 7099.

104- تاريخ الطبري ج 2 ص 626.

105- صحيح البخاري: كتاب المغازي الباب 30/ الروض الأنف ج 6 ص 195/ زاد المعاد ج 2 ص 48.

الفارسي¹⁰⁶، وهي فكرة الخنادق التي لم تعرفها الحروب العربية الجاهلية، فقد حفر المسلمون خندقاً طويلاً بين جبلين وقاهم هجوم الأحزاب، وجعل حصارهم يتبدد حتى أذن الله بانجلاء الغمة بإرسال ريح شتت شملهم كما في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾¹⁰⁷

ومن الأفكار الحربية التي استفادت منها الدولة الإسلامية فكرة الاستعراض السائدة في بلاد فارس لمزيد إرهاب الأعداء، ولم تكن تلك عادة العرب في حروبهم، فقد ورد أن النبي (عليه الصلاة والسلام) أمر عمه العباس قبيل فتح مكة أن يحبس أبا سفيان بن حرب ليستعرض أمامه الجيش المسلم، ففي سيرة ابن هشام: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول مالي وسليم.... حتى نفدت القبائل. ما تمر قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته عنهم قال: مالي ولبني فلان، حتى مر رسول الله قي كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق. فقال: يا سبحة الله يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بمؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أهلك عظيماً. قلت: إنها النبوة. وكان لهذا الاستعراض العسكري دوره في دفع أبي سفيان للإرجاف بأهل مكة وثنيهم عن القتال ودفعهم إلى الاستسلام¹⁰⁸.

106- ابن الأثير عزالدين: أسد الغابة في معرفة الصحابة (ت خالد طرطوشي) ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 2006. رقم 2151 ج2 ص309/ ابن عبد البر القرطبي: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، القاهرة، مكتبة مصر (د، ت)، ج2 ص82.

107- سورة الأحزاب الآيات 9-11.

108- الروض الأنف ج7 ص212/ البداية والنهاية ج4 ص290.

كما شهدنا التواصل مع التجربة والخبرة الطبية الفارسية في إشادة النبي (عليه الصلاة والسلام) بطب الحارث بن كلدة الذي كان من ثقيف من أهل الطائف، "ورحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل نيسابور وغيرها في الجاهلية قبل الإسلام، وجاد في هذه الصناعة: وطب بأرض فارس وعالج وشهد أهل فارس ممن رآه بعلمه، واشتهر طبه بين العرب وكان رسول الله يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته."¹⁰⁹، وشاهد القول السابق ما ورد في سنن أبي داود أن سعد بن أبي وقاص لما عاده النبي في مرضه قال: "إنك رجل مفؤود. أتت الحارث بن كلدة أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبَّب.."¹¹⁰.

والشاهد في بعض هذا أن السنة النبوية تواصلت مع التجربة الإنسانية الفارسية وأقامت القطيعة التامة مع تجربتها السياسية القائمة على الاستبداد والجبروت والتراتب الاجتماعي الطبقي الذي لا تبقى معه رحم ولا رحمة ولا مرحة.

ب- دولة وحضارة الروم:

وهم القوة العالمية الواسعة الأراضي، والتي كانت تحكم أجزاء من أوروبا الشرقية والشام والأناضول ومصر وشمال إفريقيا، وذلك بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية عاصمتها القسطنطينية، وغربية عاصمتها روما¹¹¹.
امتاز الرومان بقوتهم العسكرية وقدراتهم التنظيمية فهم: "أمة ضخمة المملكة فخمة الملوك"¹¹² حكمت العالم القديم قرابة الألف سنة، وانتقلت من الوثنية إلى النصرانية. إلا

109- أحمد أمين: فجر الإسلام- نقلا عن القفطي في أخبار الحكماء- ص139.

110- سنن أبي داود: كتاب الطب رقم 3877/جامع الأصول رقم 5641.

111- العربي السيد الباز: تاريخ الدولة البيزنطية. ص112 /مروج الذهب ج1 ص330.

112- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص96. وانظر تاريخ ابن خلدون ج2 ص249/البيروني: الآثار الباقية ص93.

أنها انشغلت بالخلافات الدينية بين الفرق المسيحية المتناحرة اليعاقبة والملكانية والنساطرة والأريوسيين والموحدين¹¹³.

عندما بعث النبي وسار بالدعوة قدما وتعرض للأذى والاضطهاد دفع بعض الصحابة للهجرة إلى مملكة الحبشة النصرانية¹¹⁴، مما جعلهم يتعرفون على أنماط حضارية مغايرة للواقع الجاهلي.

ونظرا لعالمية الدعوة الإسلامية فإن أعناق الصحابة اشرأبت للعالم المسيحي، حيث انشغل الصحابة بمسألة الصراع الدائر بين الفرس والروم كما سلف في ذكر أسباب نزول سورة الروم¹¹⁵.

وأیضا فإن النبي (عليه الصلاة والسلام) استشراف لصحابته مسألة العلاقة مع دولة الرومان في عديد الأحاديث الصحيحة، ومنها حديث نافع بن عتبة: "تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحها الله."¹¹⁶

وكذلك حديث: "تفتحن القسطنطينية فلنعم لأمير أميرها، ولنعم الجيش جيشها."¹¹⁷

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سمعتهم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون

113- انظر توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني بين الإسلام والمسيحية. القاهرة، الكتاب العربي، 1947. ص 41.

114- انظر: الروض الأنف ج 3 ص 120/البداية والنهاية ج 3 ص 66.

115- انظر تفسير الطبري ج 8 ص 6501/تفسير ابن كثير ج 3 ص

116- صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة رقم 2900/ ابن ماجه: كتاب الفتن، باب الملاحم. رقم 4091.

117- مسند أحمد رقم 18957/الطبراني: المعجم الكبير رقم 1216.

ألفا من بني إسحاق. فإذا جاؤوها نزلوا لم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها"¹¹⁸

فكانت هذه الأحاديث وغيرها مما وردت به السنة من الإفادة من الخيرة الإنسانية لدى الرومان في غلبتهم الأولى على العالم، وهو ما أشارت إليه أحاديث أخرى في إمكانية التحالف مع الروم لحرب الأعداء المتربصين بالبشرية السوء. فقد ورد قوله (عليه الصلاة والسلام): "ستصالحكم الروم صلحا آمنا، ثم تغزون أنتم وهم عدوا فتنتصرون وتغنمون وتسلمون، ثم تنصرفون حتى تنزلوا بمرج ذي ثلول، فيرفع رجل من أهل الصليب الصليب، فيقول: غلب الصليب. فيغضب رجل من المسلمين، فيقوم إليه فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم ويجمعون للملحمة."¹¹⁹

هذا التقارب الذي تكلمت عليه الأحاديث هو إشادة بالخيرة الإنسانية أينما كانت وحيثما وجدت، فالإسلام يعترف بالحكمة ويأخذ بها ويحضُّ عليها مهما كان مصدرها إذا كان موثلا نافعا، على اعتبار احترامه للحق واعترافه بالفضل ولو كان من الأعداء، وفي هذا نقرأ حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) المشيد بخيرة الروم في الإدارة والتنظيم، ففي حديث المستورد القرشي عند عمرو بن العاص يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس"، فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟ فقال: أقول ما سمعت من رسول الله (عليه الصلاة والسلام). قال له عمرو: لكن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعة: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك"¹²⁰.

118- صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم 2920. قال القاضي عياض: "من بني إسحاق" كذا في جميع أصول صحيح مسلم، وقال بعضهم المعروف المحفوظ "من بني إسماعيل" وهو الذي يدل عليه لالحديث وسياقه لأنه إنما أراد العرب. انظر النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط1، بيروت، دار ابن حزم، 2002. ص2012.

119- سنن أبي داود: كتاب الملاحم 4292. /سنن ابن ماجة: كتاب الفتن الملاحم رقم 4089.

120- صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم 2898/مسند أحمد 18044.

فهذا التقييم السياسي والاجتماعي لعمرو بن العاص رضي الله عنه لحالة الروم إنما هو عن خبرة عميقة بأحوالهم. لأنه كان تاجرا رحالة جاب أقطار الشام ومصر والحبشة في جاهليته.

تواصل النبي (عليه الصلاة والسلام) مع التجربة الرومية في مواضع عديدة فمنها أنه أباح الغيلة لأصحابه، وهي جواز الحمل حال الإرضاع¹²¹. ففي حديث جذامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله يقول: "لقد هممت أن أنهي عن الغيلة حتى ذكرت أن فارس والروم يصنعون ذلك ولا يضر أولادهم."¹²²

ومن الإفادة من التجربة الإدارية للروم اتخاذه عليه الصلاة والسلام الخاتم للمرسلات الدبلوماسية، ففي حديث أنس: لما أراد النبي (عليه الصلاة والسلام) أن يكتب إلى الروم. قيل له: إنهم لا يقرؤون إلا كتابا مختوما، فاتخذ خاتما من فضة، فكأنني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله."¹²³

وفي سبيل الإفادة من الخبرات الاجتماعية والاقتصادية للروم لم يمنع النبي (عليه الصلاة والسلام) أصحابه من التجارة إلى بلاد الشام، فقد أبحر أبو بكر وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما إلى الشام . ولبس النبي (عليه الصلاة والسلام) جبة رومية ضيقة الأكمام¹²⁴، وأكل من جبن الروم في غزوة تبوك¹²⁵. بل وذكر أن اتخاذه المنبر لخطبة الجمعة كان بإشارة من تميم الداري، حيث ورد في رواية أن تميما قال: "ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك؟". قال: بلي"¹²⁶. ويظهر أن هذه الإشارة أثمر لما شاهده من

121- الفيروز آبادي: القاموس المحيط. مادة 6880. القاهرة، دار الحديث، 2008. ص1213.

122- مسلم: كتاب النكاح 1442/سنن الترمذي: كتاب الطب 2084/سنن ابن ماجه: كتاب النكاح 2011.

123- البخاري: كتاب العلم رقم 65/ مسلم: كتاب اللباس والزينة رقم 2092/ سنن الترمذي.

124- مسند أحمد رقم 18265/جامع الأصول: كتاب الطهارة رقم 1303.

125- عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية. بيروت، دار الكتاب العربي. د، ت. ج 2 ص162.

126- سنن أبي داود: كتاب الصلاة رقم 1081. وانظر فتح الباري ج 2 ص512.

اتخاذها في كنائس الشام للتسميع. وكذا أجاز النبي (عليه الصلاة والسلام) التعامل بالدنانير الرومية الهرقلية.

فكل هذه الدلائل وغيرها تدل على عمق التواصل مع التجارب الإنسانية المغايرة. وهي تجد شاهدا لها في دفع النبي (عليه الصلاة والسلام) أصحابه إلى تعلّم اللغات الأجنبية كالسريانية والعبرية، ففي حديث زيد بن ثابت: أمرني رسول الله أن أتعلّم له كلمات من كتاب يهود، وقال: إني لا آمن يهود على كتابي. قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له. قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبْتُ إليهم. وإذا كتبوا إليّ قرأتُ له كتابهم¹²⁷.

ولم يقتصر الأمر على دفع الصحابة لتعلّم اللغات السريانية والعبرية، فهناك إشارات أخرى إلى أن النبي (عليه الصلاة والسلام) كان ينطق ببعض الكلمات الحبشية، وربما كان ذلك أثره من تعلّم أصحابه للغة الحبشة عندما كانوا مهاجرين فيها مدة تزيد على اثني عشرة سنة. فقد ورد في حديث أم خالد بنت خالد: قالت: "أتيت رسول الله (عليه الصلاة والسلام) مع أبي وعليّ قميص أصفر، قال رسول الله: سنه سنه. قال عبد الله: وهي بالحبشة حسنة"¹²⁸. كما ورد أنه عليه السلام تكلم ببعض الفارسية. ففي صحيح البخاري في باب من تكلم بالفارسية والبطانة من حديث أبي هريرة: "أن الحسن بن علي أخذ ثمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم بالفارسية: كخ كخ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة."¹²⁹.

ونقل في بعض الآثار أنه كان يعرف اللغات كلها استنادا إلى مبعثه للناس كافة، ونقل المدائني وغيره أنه كلّم سلمان الفارسي بالفارسية، ففي حديث ابن عباس أنه سئل: هل كلّم رسول الله بالفارسية؟ قال: نعم، دخل عليه سلمان فقال له: "درسته وسادته"

127- صحيح البخاري: كتاب الأحكام رقم 7195/ سنن أبي داود: كتاب العلم 3645.

128- صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير رقم 3071/ جامع الأصول رقم 8318.

129- البخاري: كتاب الجهاد والسير رقم 3072/ مسلم: كتاب الزكاة رقم 1069/ جامع الأصول رقم 2784.

قال محمد بن أميل: أظنه: أهلا ومرحبا" ¹³⁰. وفي حديث أبي هريرة قال هجر النبي (عليه الصلاة والسلام) فهجرت، فصليت ثم جلست، فالتفت إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) فقال: اشكيب درد: - ومعناه وجع البطن - قلت: نعم يارسول الله. فقال: قم فصل فإن الصلاة شفاء" ¹³¹

وانسحب ذلك الاغتراف من التجربة الإنسانية حتى إلى قضايا اللهو واللعب والترويح، حيث كان الحبشة مشهورين بضرب الدف والرقص، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته ¹³². فقد حصل أن جاء وفد من الأحباش إلى المدينة المنورة فسمح لهم النبي (عليه الصلاة والسلام) بممارسة أشكال لهوهم في مسجده، بل وأخرج زوجته عائشة رضي الله عنها لترقح عن نفسها. حيث ورد في حديث عائشة: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة، وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر. فقال النبي (عليه الصلاة والسلام): دعهم، أمنا بني أرفدة. يعني من الأمن." ¹³³ وفي روايته: "وكان يوم عيد السودان بالدرق والحراب" ¹³⁴

وفي حديث عائشة أيضا: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتدفقان وتضربان، والنبي متغش بثوبه، فانتهرهم أبو بكر، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد، وتلك الأيام أيام منى" ¹³⁵. وفي الترجمة والشروح أنهما حبشيتان.

130 - انظر الكتاني: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، ج 1 ص 209.

131- سنن ابن ماجة: كتاب الطب رقم 3458. وفي اسناده ضعف. انظر الألباني: ضعيف الجامع رقم 411.

132- ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة. (ت درويش الجويدي) ط 2. صيدا. المكتبة العصرية. 1997. ص 83.

133- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3530/ صحيح مسلم: كتاب العيدين رقم 892.

134- صحيح البخاري: كتاب العيدين رقم 950/ صحيح مسلم: كتاب العيدين رقم 892.

135- صحيح البخاري: كتاب المناقب 3529/ جامع الأصول رقم 6223.

فهذه الشواهد وغيرها تدل دلالة قاطعة على انفتاح السنة النبوية تجاه الجميل من الأعراف الإنسانية والخبرات العالمية، وكذا الانفتاح على اللغات المغايرة للاستفادة من الأغيار، وهو ما سبقت به الرسالة الإسلامية غيرها إذا ما قورنت بعض الديانات والثقافات المنغلقة التي تخاف الآخر وتهاب كل سواد في بياض ليس من لغتها. فالسنة النبوية بما سلف لم تأل جهدا في التواصل مع الصنيع الجيد للإنسان حيث كان، وأين وجد، وبأي لغة نطق أو كتب. لأنها تستبطن من ذاتها القيومية على الآخرين بما لها من خصائص الخاتمية والهيمنة المؤيدة بهدي الله رب العلمين.

رابعا: السنة النبوية وميراث اليهودية والنصرانية:

اعتبرت الرسالة الإسلامية ذاتها فقرة من سلسلة النبوات السابقة، فهي اللبنة المكملة، وهي الشريعة المهيمنة، وهي الدين الخاتم لما سبق، وكانت تصرّ بجلاء على انتسابها للإبراهيمي المحض، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹³⁶، ﴿مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾¹³⁷

وفي هذا الصدد كان النبي (عليه الصلاة والسلام) يحضّ على التواصل مع الحميد الباقي من هدي الأنبياء والمرسلين. ففي حديث جابر بن عبد الله قال النبي (عليه الصلاة والسلام): "مثلي ومثل الأنبياء كمثّل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء"¹³⁸

جاءت الرسالة الإسلامية مكملة ومهيمنة على ماسبق، ولكن السنة النبوية لم تقم بالقطيعة الكاملة مع موارث الأنبياء السابقين، ويظهر ذلك في الاتصال والانفصال مع

136- سورة آل عمران الآية 67.

137- سورة الحج الآية 78.

138- صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3534/ صحيح مسلم: كتاب الفضائل رقم 2287.

ميراث الديانتين اليهودية والنصرانية، الديانتين السائدتين غداة مبعث النبي (عليه الصلاة والسلام).

أ: اليهودية: حصل التواصل مع اليهود في المدينة المنورة عندما قبل النبي بهم أعضاء في دولتها بمقتضى عقد الصحيفة الوارد في كتب السيرة، فعندما هاجر النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى المدينة كتب صحيفة لبيان حقوق وواجبات المتساكنين ومنهم اليهود الذين اعتبرهم الصحيفة أصحاب دار لهم النصرة والأسوة. أي المساواة، وفرضت عليهم واجبات الانتصار للمسلمين والمشاركة في حماية المدينة من أي تهديد خارجي، وهي المعاني التي عبرت عنها بجلاء بنود الصحيفة الآتية:

- وأن من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم¹³⁹.

لم يبدأ النبي اليهود بالعداء أو الاستعداد، ولكنه قبل بوجودهم داخل حرم مدينته، ومدّ جبل الوصال بدءاً من الاعتراف بهم أهل كتاب آمن بأنبيائهم وعزّهم تصديقاً لقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله﴾¹⁴⁰.

بدأ النبي (عليه الصلاة والسلام) بالاقتراب والحوار والتعايش مع اليهود في وقائع عديدة سجلتها مرويات السنة النبوية، فمن ذلك أنه احتفى بذكرياتهم وأخبارهم عندما صام عاشوراء. ففي حديث ابن عباس: قدم النبي المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء. فقال:

139- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية والإدارية ص 39-47 / الروض الأنف ج 4 ص 171.

140 - سورة البقرة الآية 285.

ماهذا؟ قالوا: هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم. فصامه موسى عليه السلام. قال: " فأنا أحق بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه." ¹⁴¹

وأما التواصل التشريعي فقد كان في بداية الأمر يحب موافقتهم فيما لم ينزل عليه وحي. ففي حديث ابن عباس: "كان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي رأسه." ¹⁴²

هذا في تقاليد الأزياء والزينة. وكذلك ورد أنه حكم لهم بحكم التوراة في رجم الزناة. ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: "أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله فذكروا إليه أن رجلا وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم. فقالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتهم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له بن سلام: ارفع يديك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق." ¹⁴³

ولم يقطع المسلمون العلائق الثقافية مع مجاورهم اليهود فكان التبادل والتساؤل والمحاورات والمناظرات التي لا تنتهي وقائعها، فكان النبي (عليه الصلاة والسلام) يسألهم في أخبارهم ويسألونهم، كما في حديث السؤال عن الروح ¹⁴⁴. وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ¹⁴⁵، أنها نزلت في حق يهود الذين كانوا

141 - صحيح البخاري: كتاب الصوم رقم 2004/ صحيح مسلم: كتاب الصيام رقم 1131.

142 - صحيح البخاري: كتاب المناقب رقم 3558/ صحيح مسلم: كتاب الفضائل رقم 2336.

143 - صحيح البخاري: كتاب المناقب 2635/ مسلم: كتاب الحدود 1699/ سنن أبي داود: كتاب الحدود 4440.

144 - صحيح البخاري: كتاب العلم رقم 125/ سنن الترمذي: كتاب التفسير رقم 3152

145 - سورة آل عمران الآية 188.

يخبرون النبي (عليه الصلاة والسلام) بخلاف ما سأل، ويجبون المحمدة¹⁴⁶، كما أنه كان يطرق بيت المدارس -المدارش- وهو معهدهم الديني يسائلهم ويدعوهم إلى الإسلام¹⁴⁷. وقد أذن للمسلمين في الرواية عنهم فيما لم ينزل به وحى، ففي حديث أبي هريرة، قال: "كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا "آمنّا بالله وما أنزل إلينا".¹⁴⁸ 149

وفي حديث عبد الله بن عمرو: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني إسرائيل حتى يصبح ما يقوم إلا إلى عظم صلاة.¹⁵⁰

ونماذج تلك الأحاديث المبينة عن تواصل ثقافي كثيرة في السنة، مثل الأحاديث الواردة في قصص بني إسرائيل وأخبارهم، كحديث الأقرع والأبرص والأعمى¹⁵¹ وحديث جريج¹⁵² وغيرهم، وكتصديقه للحبر اليهودي¹⁵³ فيما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾¹⁵⁴

ورغم الإحسان المبذول والرغبة الملحاحة في إسلام يهود إلا أن الكبر وغمط الحق أعمى أبصارهم فعادى عامتهم النبي وآذوه في شخصه كما هو الوارد في تسليمهم عليه

146 - البخاري: كتاب التفسير رقم 4567/ مسلم: كتاب صفات المنافقين رقم 2777/ تفسير القرطبي ج 4 ص 195.

147 - صحيح البخاري: كتاب الجزية رقم 3167

148 - سورة البقرة الآية 136.

149 - صحيح البخاري: كتاب التفسير رقم 4485

150 - سنن أبي داود: كتاب العلم رقم 3663.

151 - صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء رقم 3464/ صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق 2964

152 - صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء رقم 3436/ صحيح مسلم: كتاب البر والصلة رقم 2550

153 - صحيح البخاري: كتاب التفسير رقم 4811/ صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة رقم 2786.

154 - سورة الزمر الآية 67.

بقولهم: السام عليك يا محمد، وهو الموت، فرد: وعليكم، فترد عائشة: وعليكم السام واللعنة، فقال (عليه الصلاة والسلام): مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، قالت عائشة: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: فلم تسمعي ما قلت وعليكم.¹⁵⁵

ظهر أثر هذا التواصل في بعض التسريبات الثقافية للمسلمين، كما ورد أن عائشة رضي الله عنها كانت عندها لعب خيل تلعب بها لها أجنحة، فاستغرب النبي (عليه الصلاة والسلام) وقال: خيل لها أجنحة. فقالت: إنها خيل سليمان¹⁵⁶. والحديث يدل على أن الاختلاط الثقافي لم يكن منكرا. كما شهدنا الاستفادة من التجربة اليهودية في ميدان التجارة عندما لاحظ النبي هيمنة اليهود على عصب الاقتصاد في المدينة نتيجة لسيطرة اليهود على أسواقها. فأمر بإنشاء سوق موازية لسوق بني قينقاع للحد من هيمنتهم التجارية.

وفي مجال الزراعة استفاد المسلمون من تجربة اليهود في تنمية زراعات خيبر، فبعد فتحها عام سبع للهجرة أذن لهم النبي (عليه الصلاة والسلام) بالبقاء فيها، وإعطاء شطر منها للمسلمين، لأنهم أعلم بأرضهم من غيرهم ففي حديث ابن عمر: "أن رسول الله أعطى خيبر اليهود على أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها."¹⁵⁷

هذه الإشارات وغيرها كثير تدل على أن السنة النبوية لم تكن تضيق بالحكمة والخبرة الإنسانية ولو كانت من الأعداء المحاربين، فلم يوجد في زمن النبي (عليه الصلاة والسلام) أشد عدا من اليهود بنص القرآن الكريم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾¹⁵⁸ ولكن ذلك لم يمنع من التواصل مع الحسن مما عندهم، والانفصال عن كثير من سوءاتهم وأخلاقهم المرذولة.

ب/ النصارى:

155 - صحيح البخاري: كتاب الأدب رقم 6014/صحيح مسلم: كتاب السلام رقم 2165.

156 - صحيح ابن حبان: باب اللهو واللعب رقم 5864/فتح الباري ج 10 ص 371.

157 - صحيح البخاري: كتاب المزارعة رقم 2331/صحيح مسلم: كتاب المساقاة رقم 1551.

158 - سورة المائدة الآية 82.

اتسمت التجربة الإنسانية للنصرانية زمن البعثة الإسلامية بالانشغال بالقضايا العقدية المتعلقة بطبيعة المسيح المختلف فيها بين الفرق النصرانية، والتي تحاربت فيما بينها، وزاد الأمر سوءاً تبني الدولة البيزنطية لمذهب واحد هو الملكاني، ومحاربة المذاهب الأخرى، بل وإبادتها كما حصل ليعاقبة مصر المتمردين على قرارات مجمع خلقدونية¹⁵⁹. إضافة إلى النساطرة الذين وجدوا في الدولة الفارسية ملجأ يقيهم كيد الملكانيين، أما الأريوسيون الموحدون فقد كانت مصائرهم مظلمة توزعت بين القتل والسجن والنفي منذ رفضوا مقررات مؤتمر نيقية (325م) المنادية بألوهية المسيح والثالوث¹⁶⁰.

غداة البعثة الإسلامية كان تميّز النبي (عليه الصلاة والسلام) واضحاً في معرفته للواقع العقدي المتشردم للنصارى. وهذه المعرفة النبوية بالمذاهب المسيحية لها شواهد كثيرة، وهي تدل على مسألة التواصل مع الميراث الديني للعالم القديم. واعتبرها كثير من الخائضين في علوم مقارنة الأديان أصلاً أصيلاً لعلومهم. فمن شواهد المعرفة النبوية بالميراث الديني المسيحي ما يأتي:

إرساله صحابته المضطهدين في مكة إلى الحبشة وهي على دين النصرانية، وكان ملكها قريباً من المذهب التوحيدي في النصرانية بدليل إجابته لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قال له: "إن عيسى هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول". فضرب النجاشي بيده فأخذ منها عوداً، ثم قال له: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود." وقد انتهى هذا النجاشي إلى الإسلام فأسلم وصلى عليه النبي عندما مات صلاة الغائب. ففي حديث جابر أن النبي (عليه الصلاة والسلام) صلى على النجاشي¹⁶¹، وفي روايته: قد توفي رجل صالح من الحبش، فسلم فصلوا عليه، وفي رواية أبي

159 - الغزالي محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط3، القاهرة، دار نخبضة مصر، 2003 ص97.

160 - انظر أبو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، الحزائر، دار الشهاب، 1989. ص196.

161 - صحيح البخاري: كتاب الجنائز رقم 1317/ صحيح مسلم: كتاب الجنائز رقم 952.

هريرة: نعى النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه النجاشي، ثم تقدّم فصفا خلفه، فكبر أربعاً¹⁶²

وأرسل النبي (عليه الصلاة والسلام) إلى هرقل ملك بيزنطة الملكاني كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام وجاء فيه: "إني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين".¹⁶³

وقد اختلف الشراح في تفسير كلمة الأريسيين في أنهم الفلاحون، أو أنهم الضعفاء المغلوبون كما قال الخطابي، أو أنهم العشارون¹⁶⁴. ولكن الصحيح أنهم أتباع القديس أريوس الذي نادى بالتوحيد وإنسانية المسيح فتم طرده ولعنه من مجمع نيقية، وحورب أصحابه حربا شنيعة، وكان النبي (عليه الصلاة والسلام) على علم بها، وهو ما يدل على سعة الأفق النبوي في معرفة الاختلافات الدينية في ذلك الزمن.

ولما ورد عدي بن حاتم إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) وكان نصرانيا، قال له: ألم تكن ركوسيا. قال: بلى¹⁶⁵. ولا ندري على الحقيقة معنى اللفظة، وورد أنه مذهب بين المسيحية والصابئة¹⁶⁶، ولكنها ربما تدل على إحدى الطوائف المسيحية المنحدرة.

لما ورد نصارى نجران إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) في العام العاشر للهجرة وأنزلهم في مسجده وبقي يناظرهم في حقيقة عيسى خمسة عشر يوما حتى كان يراوح بين قدميه. ولما يئس من إجابتهم دعاهم إلى المباحلة فامتنعوا كما هو الوارد في التفسير¹⁶⁷ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ

162 - صحيح البخاري: كتاب الجنائز رقم 1318-1320/ صحيح مسلم: كتاب الجنائز رقم 952

163 - صحيح البخاري: كتاب بدأ الوحي رقم 7 وكتاب الجهاد والسير رقم 2941.

164 - ابن حجر: فتح الباري ج 1 ص 54.

165 - السهيلي عبد الرحمن: الروض الأنف ج 7 ص 478/أسد الغابة ترجمة رقم 3611 ج 3 ص 335

166 - راجع تفسير الارتكاس في تفسير القرطبي، ج 5 ص 198.

167 - رشيد رضا: تفسير المنار ج 2 ص 166.

تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين¹⁶⁸ وقد أخرج الشيخان: "أن العاقب والسيد- سيذا نصارى نجران- أتيا رسول الله فأراد رسول الله أن يباهلهم. فقال أحدهما لصاحبه: لا تلاعنه فو الله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح أبدا ولا عقبنا من بعدنا."¹⁶⁹

وهذا يدل على قمة الإفلاس في مقارعة الحجة بمثلها. ويدل على معرفة النبي (عليه الصلاة والسلام) وتمييزه العلمي المؤيد بالوحي في هدم ونقض عقائد المخالفين.

لم يغلق النبي (عليه الصلاة والسلام) استيراد الخبرة من النصارى فيما يعود بالنفع على المسلمين كما ذكرنا في فكرة المنبر، أو في فكرة استعمال النعش في الجنائز، حيث أخرج ابن سعد أن أسماء بنت عميس -زوج جعفر بن أبي طالب- هي من أشارت بالنعش، وقد رآته بالحبشة النصرانية¹⁷⁰.

ولكن الانفصال مع التجربة النصرانية كان قاطعا في ما يعود على العقيدة الصحيحة بالنقض أو التحريف، فقد جاء في حديث أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة"¹⁷¹

168 - سورة آل عمران الآيات 59-61.

169 - صحيح البخاري: كتاب المغازي رقم 4382/ صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رقم 2420.

170 - انظر الكتاني: التراتيب الإدارية ج2 ص166/ السنن الكبرى للبيهقي رقم 13805.

171 - صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار رقم 3873/ صحيح مسلم: كتاب الصلاة رقم 528.

وجاء التحذير في مرض موته (عليه الصلاة والسلام) من هذه التجربة المنحرفة عن التوحيد: "لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد". قالت عائشة: "ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا."¹⁷²

وفي هذه الشواهد السالفة دلالة على مسألة الاتصال بالتجربة النصرانية أو الانفصال عنها. والمعيار في ذلك هو صون العقيدة من التحريف وتيسير الحياة الاجتماعية ما وجد المسلم لذلك سبيلا من أي حكمة أو تجربة يتلقفها من الموافقين أو المخالفين.

الخلاصة: ويمكن الخلوص من هذه الشواهد المستقاة من السنة النبوية إلى انفتاح العقل المسلم على التجارب الإنسانية والمعارف البشرية والأنظمة المعرفية في تبنيه الصالح منها لفائدة الإنسان المستخلف في هذا الكون، كما أنها تبين عن قمة التواصل الرسالي مع النبوات السابقة على الرغم من خاتمية الرسالة الإسلامية وهيمنتها على ما سبق، ولكن هذه الشواهد ترشد العقل المسلم في الحاضر إلى وجوب الانفتاح على النافع من الخبرات من البشرية دون التطويح بالأصول والمطلقات أو العود عليها بالنقص أو النقض أو التشويه، باعتبار حضور البعد الإنساني في رسالة الإسلام، إذ الدين مطلق لا تبديل فيه لكلمات الله، ولكن التدين يخضع للقدرة والاجتهاد البشري المرتبط بالاستطاعة والمكنة، وهي عوامل مختلفة المراتب والوجود في الواقع الإنساني، والمسلم حقيق بالانتصار لدينه بما وجد من خبرات ومعارف موروثية من أسلافه، أو مقتبسة من غيره بشرط الخضوع للقيم التي يبنى عليها الإسلام ويكمل بها الإيمان.

172 - صحيح البخاري: كتاب الجنائز رقم 1390 / صحيح مسلم: كتاب الصلاة رقم 529.